

البعد الصوفي في شعر لخضر بن خلوف

لخضر حشلافي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الجلفة

لمتتمكن الدراسات المختلفة من ضبط مصطلح التصوف ضبطا دقيقا، والتوصل إلى مفهوم واحد موحد، ومحدد، وثابت تستقر عليه الرؤى وتنهل منه البحوث والدراسات، والإنصاف العلمي يضطرنا إلى توضيح الرؤية لهذا المصطلح من خلال دراسات بعض العلماء والمصادر التي اهتمت به.

لقد أعطى أبو حامد الغزالي أهمية كبيرة للمصطلح، وخصص له أبوابا عديدة خاصة بالمصطلح وحده، في كتابه (إحياء علوم الدين)، ففي نشأة هذا المصطلح ذكر الغزالي بأنه "حين نزلت الآية "وتعياها أذن واعية" «الحاقة: 11، قال رسول الله (ص): سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي "قال علي: فما نسيت شيئا بعد، وما كان لي أن أنسى، قال أبو بكر الواسطي أذن وعت عن الله تعالى أسراره وقال أيضا: "واعية في معانيها ليس فيها غير ما شهدته شيء، فهي الخالية عما سواه، فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل، فقلوب الصوفية واعية، لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد، تفتحت مسام بواطنهم وسمعت أذان قلوبهم، وأعانهم على ذلك زهدهم في الدنيا" (الغزالي ج 5، ص 47).

وفي باب (ماهية التصوف) يذكر الإمام أبو حامد الغزالي أحاديث للرسول (ص)، وأقوالا لمن سبقوه وعاصروه من العلماء، هذه بعض منها حيث يقول: "عن ابن عمر قال: قال رسول الله (ص): "لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء، والصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة"، فالفقر كائن في ماهية التصوف، وهو أساسه، وبه قوامه، قال رويم: التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والإفتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرضوا الاختيار، وقال الجنيد وقد سئل عن التصوف: أن تكون مع الله بلا علاقة، وقال معروف الكرخي، التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف، وقال أبو حفص: التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول، وقال أيضا: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي (ص) قال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه" (...). وقال سهل بن عبد الله: الصوفي من صفا من الكفر، وامتلا من

الفكر، و انقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب و المدر، وقال ذو النون المصري : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة، فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت : و أين تريدان ؟ قالت إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقلت : صفيهم لي، فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت	فما لهم همهم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم و سيدهم	يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف	من المطامع و اللذات و الولد
ولا للبس ثياب فائق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة	قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهمر هائن غدران و أودية	وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

وقال الجنيد : « الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مريح » (الغزالي، ص 65، 66، 67) وبعد استعراض أهم الأقوال لشيوخة و علماء عصره حول ماهية التصوف يضيف الإمام أبو حامد الغزالي ملخصا النص الوارد أعلاه بقوله : ” و أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد عن ألف قول، و يطول نقلها، و نذكر ضابطا يجمع جمل معانيها، فإن الألفاظ وإن اختلفت، متقاربة المعاني، فنقول: الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، و لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شرب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولا، فبدوام الافتقار ينقى الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، و فرمها إلى ربه ” (الغزالي ص 67).

وتذكر الدراسات بأن التصوف : ” مبني على ثمان خصال : السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة، والغربة، ولبس الصوف، والسياسة، والفقر ” (مياسي 2001، ص 07) ويعرفه عبد الرحمان ابن خلدون بأنه : ” العكوف على العبادة، والإنقطاع إلى الله تعالى، و الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، و الزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال و جاه، و الإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ... ” (ابن خلدون 1993، ص 381)

تجمع الدراسات و أمهات الكتب التاريخية و الدينية بأن مصطلح التصوف لم يظهر إلا في عهد الصحابة و التابعين، و لم يكن في زمن الرسول (ص): ” وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما، و قبل لم يعرف هذا الاسم إلى المئتين من الهجرة العربية ” (الغزالي ص 69).

وقد تختلف أصل التسمية من هؤلاء و أولئك، فمنهم من يقول الصوفية جاءت من الصوف، و سمو كل من يلبس الصوف صوفيا، و منهم من قال بأن الصوفية من الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين زمن رسول الله (ص)، و منهم من قال بأنها جاءت من الصف الأول بين يدي الله تعالى، و هناك من قال بأنها مشتقة من أصل (صفوى)، فاستثقل ذلك و جعل صوفيا، و كل هذه الآراء يلخصها أبو حامد الغزالي في باب موسوم بـ (في ذكر تسميتهم بهذا

الاسم ، أي الصوفية) إذ يقول : ” قال الحسن البصري رضي الله عنه : لقد أدركت سبعين بديرا كان لباسهم الصوف ... وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال (تصوف) إذا لبس الصوف كما يقال (تقمص) إذا لبس القميص، وقيل سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وقيل : كان هذا الاسم (صفوى) في الأصل ، فاستقل ذلك وجعل صوفيا، وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله (ص) الذين قال فيهم الله تعالى: ”للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» البقرة الآية 272.

وهناك من أعطى للمصطلح مفهوما دلاليا آخر حيث فكك المصطلح إلى ثلاث وحدات صوتية بعد إرجاعه إلى أصله الاشتقاقي وأعطى لكل وحدة صوتية مدلولاً يتناسب و المصطلح فأصل الكلمة (صوف) فالصا تعني الصفاء في حب الله، والواو تعني الوفاء في حب الله، والفاء تعني الفناء في حب الله، ولقد أعطى لنا التاريخ الإسلامي جملة من المتصوفة الزهاد، خلدتهم تصوفهم، فخلدهم التاريخ ونذكر ثلثة من هؤلاء، من بينهم على سبيل المثال لا الحصر؛ أبو القاسم الجنيد، و الحسن البصري، الحلاج، وربيعة العدوية، وعبد القادر الجيلاني، والتجاني والشاذلي وغيرهم، ويتبين تصوف المرء من خلال أخلاقه كما فصلها أبو حامد الغزالي، و من أخلاق المتصوفة التيذكرها ” التواضع والمدارة واحتمال الأذى من الخلق والإيثار والمواساة، والتجاوز، والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة، والبشرى وطلاقة الوجه، والسهولة ولين الجانب، ولنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم، وترك التعسف والتكلف، والإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار، وترك المراءى والمجادلة والغضب، والتودد والتآلف و الموافقة مع الإخوان وترك المخالفة، وشكر المحسن على الإحسان والدعاء له، وبذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة (الغزالي ص138)».

والتصوف كنزعة دينية استجابت له مختلف الفئات الاجتماعية، وذاع وانتشر عبر جل الأقطار والبقاع الإسلامية، في المشرق والمغرب، والجزائر هي من بين هذه الأقطار التي وصل إليها التصوف والطرق الصوفية ” ولقد عرفت الجزائر الطرائق الصوفية منذ القرن السادس عشر ميلادي، وذلك قبل الحكم العثماني في الجزائر، ثم أخذت تنمو تدريجيا، وتنتشر على نطاق واسع خاصة في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي“ (مياسي 2001 ص07)

وبظهور الطرق الصوفية ورجالاتها اختلفت الرؤى واختلفت الوسائل، وإن كان الهدف واحدا، ”أما رجال الطرق أنفسهم فيختلفون حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى هدفهم، إن البعض يراه في الممارسات و الوسائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التطهر و التقشف، و القيام بالوجبات الشرعية على أتم وجه، والتحلي بالأخلاق و الفضائل، و تجنب كل الشبه و المزالق، بينما يراه آخرون منهم في الوصول إلى الإلهام والكشف والرؤى، والسرحان في عوالم الأسرار الغامضة، ولكن النتيجة واحدة تقريبا، فهي التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه“ (مياسي 2001 ص07).

ولقد كانت للصوفية مظاهر لم تمس سلوكياتهم وأخلاقهم فحسب، بل تعدت ذلك إلى

كتبهم وكتاباتهم الدينية والتاريخية والأدبية " إن التيارات الصوفية الطرقية بصفة عامة في الشمال الإفريقي كان لها أثرا كبيرا في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والأدبية، وهذه التيارات ماثورة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والرحلات، حتى إن كثيرا من سلاطين الملوك الأتراك وولاتهمومن الأسر المالكة لم تتمكن من القبض على زمام الحكم إلا بفضل روابطها مع الصوفية والصوفيين الذين بلغت سلطتهم الروحية على الشعب مبلغا أصبحوا يوجهونه الوجهة التي يرتضونها، بل إن هناك حركات صوفية كالحركة الدلائية في المغرب الأقصى، والقادرية في الجزائر قد اتخذت من نفوذها الروحي طريقا للاحتفاظ بمقاليد السلطة و محاولة تطبيق القانون السماوي" (عفيفي 1969، ص 107).

وتعتبر الزوايا هي المكان الأنسب الذي تؤدي فيه مختلف الشعائر والعبادات، فيقصد بها المتصوفة، وينزرون في إحدى الأركان، حيث إن لكل زاوية شيخ يقتدي به المتصوفة، ويكون الشيخ مقتد بطريقة أو مؤسس لها، ومن هذا المنظور " احتل مؤسس الزاوية مكانة هامة في نظر علماء الإسلام، وخاصة منهم الذين تخرجوا من هذه المؤسسات، حيث كان للزاوية عليهم فضل كبير، يضاف إلى هذا أن مؤسس الزاوية ينحدر -في الغالب من عائلة شريفة.... وينتسب إلى ولي مشهور مثل عبد القادر الجيلاني» (التلي 1983، ص 32)، ومن الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين التزموا بمبادئ وأخلاق ومظاهر المتصوفة، نذكر على سبيل المثال: أبو مدين شعيب، وعبد الله بن أبي سعيد المنداسي، والشاعر قدور بن عاشور، ومحمد بن سهلة، وكذلك الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف وغيرهم، ولقد كان شعرهم مرآة عاكسة لحياتهم التي تتناسب و حياة المتصوفة في التواضع والبساطة والانقطاع عن الدنيا وشواغلها والانزواء في ركن معين للعبادة والذكر والاستغفار، والتفكير في الحياة الأخرى.

وإذا كان الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف - كما رأينا - قد غرق في المدح، وأسهب في مدح الرسول(ص) فإن شعر التصوف عنده « قد اتخذ ضربا من الغموض في الغالب وتعتمد العبارات التي لها أكثر من دلالة»¹.

ولعل هذا الحكم السابق لأوانه يقودنا إلى دراسة نماذج ومقاطع من قصائد الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف، وسنحاول مع شعره الصوفي الذي يصور لنا غرقة في العبادة والزهد في الدنيا، والذكر الكثير في كل وقت وحين، والتذكر والبقاء على ما ينتظر الإنسان من عذاب وهول ووعيد، وبعد تصفحنا الديوان الشعري، وبعد الإطلالة المتمعنة للشعر الخلوفي انتقنا هذه المقاطع التي سنقوم بشرحها وتحليلها وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

حسن ما بقال عندي	باسم الله وبيك نبدا
حبك في سلطان جسدي	ما عزك يا عين وحدا
يا محمد انت سيدي	صلى الله عليك لبدا

لاغيرك مناع يمنع	من سطوة مول الموالي
لاغيرك شفيع يشفع	من هو عرة بحالي
داوني بدواك نبرا	من وسواس آل نراه
فضل الله كتابه عندي	يكفيني قوتي وغدا
نهزم به القوم وحدي	نفسى والشيطان الأعدا (التلي 1983 ، ص 59)

في هذا المقطع يشعرا الشاعر بحقيقة الخالق عز وجل ، و نبيه محمدا عليه الصلاة و السلام يشفيع الخلق يوم القيامة ، و بعدئذ يرسم الشاعر خطا واضحا و صريحا لبداية مرحلة الخوف و الفرع و الندم من العاقبة التي تنتظر كل إنسان ، إنها نهاية البداية و استقبال حياة أخرى مغايرة للحياة الأولى، و هذا الخط الفاصل هو الموت الذي لا مفر منه لذا كان لزاما على الشاعر أن يستنجد بالرسول (ص) و يطلب الشفاعة له و لأهله و لأمته (ص) و لجميع الخلق بمن فيهم التقاة و العصاة يوم لا يستطيع الإنسان التهرب أو التبرأ من عمله، إن خيرا فخير ، و إن شرا فلا يلومن الانفسه في يوم لا ينفع اللوم أو الندامة و الحسرة، وقد يكون يومها إلا الرسول (ص) هو الشفيع المشفع ، و لا رجاء إلا له، ثم يذكر الشاعر فضل قراءة القرآن، و حفظ كتاب الله تعالى فالقرآن الكريم هو الغذاء الروحي و القوت النفسي الذي يزكي النفس و يطهرها، و يديرها إلى الحق عندما تحيد، لأن النفس أمارة بالسوء، منقادة للشهوات، و لذائد و متع الحياة، إضافة إلى مكائد الشيطان، و زلات الخطأ و النسيان، و ان النفس كالطفل لا تنته عن وساوسها، فواجب زجرها متى أرادت العقيان والعصيان، و لا يتأتى هذا إلا بالاستغفار و التوبة من الذنوب، و قراءة القرآن، و الإكثار من الذكر، كما ورد في شعر سيدي الأخضر بن خلوف.

ويقول الشاعر في مقطع آخر من قصيدة أخرى:

دركي عليك وعلى ربي	هو اللي أزرع ثمرة فيا
أنا أطلبته يوف طلبي	وتعود سيقي منسيا
حتى نجيك يا محبوبى	ويرضى الكريم بالمنييا
ماني وزير ماني قايد	مالي رحيل تهزم مني الأعقاد
ماني بالامحال مشيد	مولي قبيل تجري بي الميعاد
الشيب لا غناهيل حقني	يضحي الشباب على تاتا
القبر لا غناه يملكني	يضحي التراب لي وراثا (بخوشة 1958 ص 74)

في هذا المقطع يخاطب الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه هو العمادة و الركيزة التي يعتمد عليها يوم الحساب و العقاب، فهو الذي ينجيه و يشفع بشفاعته له يوم هول الفاجعة، و يدعو الله سبحانه و تعالى أن يستجيب دعواه و يبدل سيئاته حسنات، و تعود سيئاته نسيا منسيا يوم يلقاه، كما يدعو أن يستجيب لكل من دعاه و استهداه و استغفره، و يضيف الشاعر بأنه ليس وزيراً ولا قائداً ولا متطاولاً في البنيان، بل هو ضيف من ضيوف هذه الدنيا

ينتظر ساعة مغادرة هذه الحياة ولا سيما عندما انذره الشيب بالرحيل، بعد ذهاب مرحلة الشباب، وما بقي إلا الموت الذي لا مفر منه، والتراب الذي لا مال إلا إليه، وكما يقال: الموت كأس والكل شاربه، والقبر باب والكل داخله.

ولعل المقطع الموالي يعبر بصورة جلية على ما قصدناه من مقتطفات الشعر الصوفي عند الشاعر بن خلوف، حيث يقول في قصيدة (محمد خير الأنام):

يا رب يا ذا الجلال	يا من لا عين تراه
أغفر لي فيما مضى لي	بحرمة كل جاه
واسمح لي فيما بقى لي	يا من لا رحيم سواه
أجعل باب الذكر فامي	نذكر محمد بالدوام
يا ماذا من خير باسط	في الصلاة علي الرسول
هي أسرع من قوس رامي	وأنفد من كل سهام
كنز ما كنزوه كرامي	في الصلاة والسلام

في تضرع وخشوع يدعو الشاعر الله بأن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخره في ما بقي من حياته، ويرجوه أن يجعله سباقا إلى الخير، مرشدا هاديا للحق، وأن يجعل لسانه في ذكر دائم ومتواصل إلى أن يموت، وأن يجعل ذكر الله ورسوله مثل الطعام الذي لا يمكن الإستغناء عنه، وينتقل إلى ذكر فضل الصلاة على الرسول الكريم (ص) فهي تجارة مريحة، فيها خير كثير من الأجر والثواب، وهي كنز مبسوط لمن أراد جمعه بسهولة. فلمن أراد ذلك فعليه بالصلاة على الرسول (ص).

ويضيف الشاعر قائلا في نفس القصيدة:

يا ماذا من عين نايمه	يرجاها النوم الطويل
وماذا من راس في السما	ما عارف الموت تصيل
حاسب دار الشوم دايمه	ولا عنده منها ريجان
لا تدبير ولا استقام	ولا ترشيده ولا لجام

ويشعرنا الشاعر هنا بحقيقة الموت، موجه خطابها إلى كل غافل شغلته الدنيا بلهوها وشهواتها وفتونها، وما هذا كله إلا زائل فان، والإستقامة على طريق الحق، وإدارة لجام الدنيا، واستصغار فتونها وزينتها، حيث كلما تراءى له مباحجها ومغرياتا صدها بقوله كما كان علي - كرم الله وجهه - يقول: يا دنيا إليك عني، يا دنيا غري غيري، يا دنيا ألي تعرضت أم إلي تشوقت؟ هيهات هيهات، غري غيري، قد أبنتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير.

في قصيدة صوفية أخرى بعنوان (الموت لا غنى تدركني)، يصور لنا الشاعر حقيقة الموت التي تنتظر كل غافل لاه عن ذكر الله وعبادته، ثم حقيقة الحساب والعقاب، في القبر

ويوم القيامة، ومنها اخترنا هذا المقطع:

الموت لا غنى تدركني	صح الخبر بلا شك ولا ارتياب
ليته الرحيل ما يأتيني	في كل حين حجلة سافرها العقاب
ما أقواك راقدة يا عيني	ما تتفكرير حيلك والرقدة في التراب
ما أقواك راقدة وتنامي	ما في الرقاد عندي حاجة
ذموه ساداتي قدامي	النوم الطويل ليه اترجي
يا عين لا تنامي بتا	اتفكري عذاب القبر

تضم القصيدة كثيرا من مظاهر التصوف، كان الشاعر يدعو إلى بعضها، ويدم بعضها الآخر التي تؤدي بصاحبها إلى الضياع والهلاك، ويبدأ الشاعر بأول كلمة في القصيدة وهي الموت، فهو أمر حق، وخير يقين لا شك فيه ولا إرتياب، فهو بمثابة ذلك العقاب المفترس الذي ينقض علي الحجلة أو فريسة أخرى دون أن يعلمها أو يستشيرها، لا يفرق بين الصغير أو الكبير ولا الصحيح أو العليل، ولا المسن أو الرضيع، ولا الملك أو الخادم المطيع، فالكمل عنده سواء. «وما تدري نفس بأي أرض تموت» لقمان 33.

ويلقي الشاعر جام غضبه إلى عينه التي يطول نومها ولا تتفكر ولا تتذكر ما سوف ينتظرها من رحيل، ورقاد في حفرة القبر، وسؤال الملائكة عن الطاعة والعبادة، ثم يوم الحساب والعقاب، والشاعر عندما يخاطب عينه النائمة، لا يقصد نفسه فحسب، بل خطابه موجه لكل غافل عن الآخرة، يرجاه وعيد وتهديد. ولقد قالت العرب قديما: (إذا استطعت حلاوة النوم، فتذكر مرارة الفشل)، فلا داعي إله النوم إلا إذا احتجت إليه أيها الغافل، ويدعو الشاعر كل غافل إلى التفكير والتدبر والبكاء من الذنوب، والاستغفار منها، وتذكر يوم القيامة، عندما يجد كل إنسان ما عمل من خير أو شر: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" العمران 30.

وفي ختام القصيدة يطلعنا الشاعر على بعض شيوخ التصوف فيذكر منهم الساخي وسيدي شفيق، ويعتقد أنهما من أولياء الله الصالحين الذين كان الشاعر يعرفهما حق المعرفة، أيام زمانه، ويذكر أيضا القيرواني، ويعتقد أنه أبا زيد القيرواني المشهور صاحب الرسالة الفقهية، ويذكر كذلك الكراخي أين نجهل من يكون هذا الرجل بعد تصفحنا لمجموعة من المراجع المتخصصة في ترجمة الأعلام، ويذكر في الأخير شيخه عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة القادرية: "سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب، والغوث، وعضد الإسلام، (...) وهو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، (...) وتتسم القادرية بالإصلاح والإرشاد والتسامح ونشر المعرفة والعلم، ومحاربة المستعمر المحتل الغاصب للأرض، وهي أول طريقة صوفية ظهرت في العالم الإسلامي، وهي منبع وأصل لكل الطرائق الصوفية التي جاءت بعدها (...) وانتشرت

الطريقة القادرية ببلاد المغرب العربي عن طريقين هما مصر والأندلس، ولها بها فروع للزاوية الأم في بغداد.“ (مياسي 2001 ص 07)

وعن ما ذكرناه يقول الشاعر:

نتوسلوا بجاه الساخي	سيدي شفيق ما يحرمننا
وأبازيد والكراخي	بجاههم الله يرحمننا
أرحم والدي وأشيوخني	وأرحم جميع من علمنا
راني في حمه الجيلاني	والشيخ بوعزه مفرج الكرب
والشاذلي والقيرواني	والقرطوبي والنساجي وحروف الكتاب

فالساخي وسيدي شفيق وأبا زيد والكراخي أغلب الظن أنهم من أصدقاء الشاعر وكان يعرفهم ويجلهم ويحترمهم، وقد تكون هذه الشخصيات أضرحة لأولياء كان الشاعر يمجدهم في هذه الأبيات، وقد تكون هذه الشخصيات من الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الشاعر بن خلوف آخذين في الحسبان ما أراده مباشرة في الدعاء لهم ولولديه (أرحم والدي وأشيوخني)، كما أنه يذكر عبد القادر الجيلاني والشيخ بوعزه والشاذلي والقيرواني والقرطوبي والنساجي، وكلهم ساهموا بالقليل أو بالكثير في إرساء تعاليم الصوفية ونشرها في كامل البلاد العربية والإسلامية.

وقد صرح الشاعر بأنه يقتدي بالطريقة القادرية التي تعتبر أوسع الطرق انتشارا في بلدان العالم الإسلامي، كما أنها أول طريقة صوفية ظهرت إلى الوجود، وتفرعت منها مجموعة أخرى من الطرق التي ساهمت في حفظ تعاليم الإسلام ونشر دعائمه، وكان الشاعر في كل مرة يذكر صاحب الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني (مرتاض 1998، ص 112).

ومن القصائد الصوفية في شعر بن خلوف، نذكر قصيدة (نبتأ الكلمة) وفيها يؤكد حقيقة الذكر، وبخاصة التهليل (لا إله إلا الله)، فيها تستقيم النفس، ويتقوى الإيمان، وهي عمود وأساس الدخول فيه، يقول الشاعر:

نبتأ الكلمة مفتاح النظام	فاز من عظمها وأكرم نزولها
لا إله إلا الله سلطنة الكلام	متني يارب مسلم نقولها
لا إله إلا الله حصني من الجحيم	من دخل حصن الله لا خوف ولا ندم
لا إله إلا الله تبري من السقام	ضامنة المغفرة لمن يقولها
لا إله إلا الله كنز الموحدين	لا إله إلا الله مفتاح لكل باب
لا إله إلا الله بالنفي والثبات	الثبات لله والنفي لغيره
لا إله إلا الله أساس الجهاد	فضل أهل التوحيد والشهادة

هذه مقتطفات من قصيدة طويلة، يبين فيها الشاعر حقيقة وفضل (لا إله إلا الله) التي لها من الدلالات والمعاني ما ترتاح له النفس، ويشفى كل عليل، فمن قالها مخلصاً توحيده لله فقد ثبت إيمانه وإسلامه، فهي فاتحة الدخول في الإسلام، ومن قالها قبل مماته ضمنت له الجنة، وهي حصن المؤمن من النار، وهي دواء السقيم المريض من وسواس الشيطان والنفس والهوى، وقائلها بإخلاص تمحي عنه السيئات وتكتب له الحسنات، ويرفع بها درجات، هي عبادة المؤمن ودليله، وهي كلمة الجهاد ومنبع التوحيد والشهادة، ثقيلة في ميزان الحسنات عند الله، ويشبهها الشاعر بالماء الذي يغسل الثوب الدنس، فهي للقلب والروح مثل الماء للثوب، ويجعل الروح بيضاء من غير سوء، فلا إله إلا الله هي عبادة في غاية البساطة، وريح عظيم من دون عمل ولا تجارة، ثم يدعوا كل إنسان إلى الإقتداء من خلال الصحابة والخلفاء مثل أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم، لأنهم ملؤوا التاريخ الإنساني والإسلامي بأعظم البطولات والمواقف التي كرمهم بها دين الإسلام، كما يدعو الشاعر إلى الاستقامة وترك شهوات النفس ومفاتن الأهواء، ومغريات الدنيا حيث يقول:

واينهم الخلفاء مع الأصحاب سيادي	أبوبكر وعمر وعثمان في اللحد
لاش بعد علي زين السيف ترقيدي	لاش بعد الستة ما تمطر الخدود
أنتبهيا غافل بركاك من المنام	واترك شهوات النفس تبرى عيوبها
اتفكر يوم تاتيكَ الموت كالسهم	بغثة تاتيكَ من بعد بعدها

وعن الاستقامة في علم التصوف يقول ابن خلدون: «إن المرأة الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة، وحوذي بيها جهة المرئي، فإنه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته، وإن كانت مسطحة تشكل المرئي صحيحاً، فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال» (ابن خلدون 1993 ص 383).

ويقول الغزالي في (إحياء علوم الدين) في هذا الصدد: «إن لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول، (...) حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، لأن النبي (ص) يقول: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه" (الغزالي ص 65).

ومن مظاهر تصوف الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف، الرؤيا الصادقة، حيث يؤكد في شعره بأنه كان يرى الرسول (ص) في المنام واليقظة، حيث يقول:

يا محمد أنت سيدي	صلى الله عليك لبدا
تسعة وتسعون رؤية	والعاطي ما زال يعطي

فالشاعر بن خلوف رأى رسول الله (ص) في المنام تسعا وتسعين مرة، وكان يريد المزيد، كيف لا وهو مادحه، وأفنى عمره في مدحه والثناء عليه، ووصفه بأسمائه وصفاته، ويذكر بخلاله وخصاله ومثله العليا والسامية، إضافة إلى معجزاته وغزواته، وكان كل مرة يرجو شفاعته، وعفوه، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان الشاعر متصوفاً زاهداً،

كان مهينا للدنيا ومذلا لها، لأنه حمل أسلامه وإيمانه وتقواه بين جنبيه، وتحت ضلوعه، وفي أعماق روحه وفي أحشائه، وبين عينيه، مستصغرا شأن الدنيا، وكلما تراءت له مفاتها وشهواتها صدها عن نفسه، وأهانها شرا إهانة، كما كان الشاعر نموذج ومثال مكتمل الشكل والجوهر فهو نموذج من النماذج الباهرة والنادرة في هذه الدنيا، لأنه نذر حياته خدمة للإسلام منذ صباه، وعاش عمره الطويل يتنفس النقاء والصفاء، والصدق والإستقامة لا تلهيه مظاهر الدنيا، ولا يهيمه إلا أن يحيا تقيا ويعيش الذين من حوله أتقيا.

إن الرؤيا الصالحة والصادقة للرسول(ص) في المنام لتؤكد الإيمان الخالص، والعبادة النابعة من يقين العقل والقلب للشاعر بن خلوف، فهي ليست من الأضغاث، ومن رأى الرسول(ص) في المنام فقد رآه حقا، لأن الشيطان لا يتمثل في صورة الأنبياء، وكما يقول الرسول(ص): "الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة". (ابن خلدون 1993، ص389) ويقول: "لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الدجل الصالح أو ترى له" (ابن خلدون 1993، ص389).

ويقول ابن خلدون عن الرؤيا: "الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان، فالرؤيا التي هي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل، والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة، تفتقر إلى تعبير، والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث" (ابن خلدون 1993، ص381).

فما أعجب أن يرى الشاعر رؤى صالحة صادقة للرسول(ص)، تسعا وتسعين مرة، فهذا أصدق مظهر من مظاهر تصوف الشاعر وإيمانه الصادق، وإخلاصه لدين الإسلام، ولكن الأغرب والأعجب والمبهر للعقول والألباب هو أن الشاعر يؤكد بيقين الخبر الصادق أنه كان يرى الرسول(ص) في اليقظة أيضا، فكان عندما يراه، ينشرح فؤاده، وينطلق صدره، وينفتح لسانه مادحا مهللا، ولا تشبع منه عيناه ولا تمل، وهذا ما يؤكد بقوله:

حتى نرى خير الأنام	عشقي ما مثله غرام
وتشفي منه نيامي	في اليقظة دون المنام

ويتميز الشعر الصوفي عند الشاعر بالغموض في بعض الأحيان، إلي درجة أن المتلقي لا يفهم ماذا يقصد الشاعر من خلال شعره، ونستدل هنا بمثالين بارزين لتوضيح الرؤية، يقول في الأول:

داوني بدواك نبيرا	من وسواس ألا نراه
إذا كان إبليس عبره	عندي حيا ولا تراه

يقول التلي ابن الشيخ معقبا على هذين البيتين: «يرى الأخضر بن خلوف أن نقطة الضعف في سلوك الإنسان تكمن في القلب، لذلك فإن إبليس يلج إلى رغبات الإنسان من القلب فيزيد له المفسد وطرق الشر، ويستدرجه إلى الهاوية من حيث يدري أو لا يدري» (التلي 1983 ص54)، ثم يقول: «إن اسم الشيطان يرتبط بارتكاب المعاصي، والوقوع في الخطايا صغيرة أو كبيرة، فكلما ارتكب المرء إثما أو وقع في المحظور، إلا وكان

الشیطان وراء هذا السلوك السيء ويرد كثيرا على السنة العامة (انعل ابليس)، إذا ما أظهر الإنسان الغضب، أو قام بفعل غير مقبول لدى الجماعة، باعتبار ابليس أو الشيطان هو السبب فيما يحدث للناس من شجار وسباب وشتم (التلي 1983 ص 53).

فالشاعر ربط بين الشر وابلليس على عادة العامة، وإن الغموض يكمن في كون الشيطان أو ابليس عند الشاعر حي ولا يراه في الشطر الأخير، وهذا غموض لا نفقه ما يقصد الشاعر بحياة ابليس عنده ولا يراه، ولم يمضي طويلا حتى يفاجئنا بقوله:

من تدبير ابليس الأعور	شهدتنا يا ناس فتنة
يختلنا من الجنب الأيسر	من تمزيق الدين خفنا
قبضت الشيطان بيدي	واعطيته ميتين جلده

ما الذي يعنيه الشاعر بقوله (ابلليس الأعور)؟ فالشاعر يبدو وكأنه رأى الشيطان بأم عينيه، ونحن لا نفهم شيئا مما يقوله الشاعر في هذا التعبير، ونفهم من قوله (الجنب الأيسر) هو القلب الذي يلج إليه الشيطان، ويخلق الفتن في نفسه، ثم يعترف الشاعر ويقر بقبض الشيطان بيده، وجلده مائتي جلدة، وكأن الشيطان شيء مادي محسوس، إنها حقا معان مبهمّة غامضة، ربما لا يعرف مقصدها غير الشاعر، وقد ربطنا مائتي جلدة، بالحدود التي أقرها الإسلام، مثل قطع يد السارق، وجلد الزاني والزانية مائة جلدة، وجلد القاذف والقاذفة ثمانيّن جلدة، وشارب الخمر ثمانيّن جلدة وغيرها من الحدود، فلم نجد من حدود الله الجلد مائتي جلدة، والمعنى يبقى غامضا غير مفهوم، وربما أراد به الشاعر معنى آخر لا يؤديه ظاهر العبارة وهذا الغموض الذي قصدناه، والذي لم يكن طاع في قصائد الشاعر إلا ما ظهر من مثل هذه القصيدة.

إن شعر التصوف عند سيدي الأخضر بن خلوف نابع من ثقافته الدينية الواسعة، ومن رجل زاهد متصوف، غارق في حب الله ورسوله، رضع من حليب الإسلام وتشبع بتعاليمه السمحة، واقتدى بخلال الصحابة والخلفاء والتابعين وأخذ من زهد العلماء والأولياء والمتصوفة الصالحين، فكان كفيلا بأن يبوّئه الله مكانة بين الأخيار الصادقين، والشعراء المؤمنين الصادقين، والأولياء المخلصين الصالحين.

ولقد أسهمت القصائد الصوفية في شعره إلى الدعوة للرشاد والخير والصلاح والاستقامة، لكل إنسان غافل، وكل نفس تواقة لأداء الشعائر، معرضة عن شهوات الدنيا، فمن أراد النجاة فعليه بالذكر وعبادة الله تعالى، والإكثار من التفكير والتدبر في خلق الله، وفي كل ما ينتظر الإنسان من تهديد ووعيد في الآخرة، والإكثار من البكاء، ولبس التقوى والعفاف والزهد، وعدم اتباع الهوى وتمني طول الأمل، لأن اتباع الهوى يصد عن الحق، وإن طول الأمل ينسي الآخرة، وتذكر الموت في كل آن وحين.

ويذكر الشاعر في كل مرة بفضل الذكر عامة، كالصلاة على الرسول (ص)، والتهليل أي ذكر (لا إله إلا الله)، ويورد الغزالي قولاً يؤكد فيه فضل هذه العبارة حيث يقول: "ولا يزال العبد في خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى يصير الكلمة متأصلة في القلب مزيلة لحديث النفس ينوب معناها في القلب عن حديث النفس، فإذا

استوت الكلمة وسهلت على اللسان يتشربها القلب، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب“ (الغزالي ج05، ص129).

إن الشعر الصوفي عند الشاعر يتميز بالبساطة والمباشرة، ولقد سما به إلى نسق متميز من التعبير إلى مستوى تلك العاطفة الدينية النبيلة النابعة من إيمانه القوي، ونفسه المستقيمة، وعيشه المتواضع، فهو رسالة حية لمن أراد الطريق الصحيح المستقيم، وهذا هو سر خلود شعره رغم كيد الزمان، وطول العهد والبعد بيننا وبين عصره، وشعره مرآة عاكسة لمعالم حياته المديدة، من صورها التواضع، والترفع عن الدنيا وإهانة الدنيا بكل شهواتها، كان يرفع يده في وجهها، تلك اليد التي لا تهتز ولا تضطرب قائلًا لمغرياتها: لا، لا تغريني، غري غيري، فأنا لست لك براض، قد ذمك أخيار الناس من قبلي، فلست لك بمطيع، ولا مريد، كما كان الشاعر أيضا يؤكد حقيقة الجنة وما فيها من نعيم، والنار وما يترجى الكافر من عذاب مقيم. فطوبى لمن عمل خيرا ليدخل الجنة، فبهنيء نفسه، ويا حسرة علي من عمل شرا فيدخل النار فيعزيه الناس.

قائمة المصادر والمراجع :

- ابن خلدون عبد الرحمان : مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية : بيروت لبنان ط1 ، 1993

- بخوشة محمد بن الغوثي: ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين الوطن، مطبعة الشمال الإفريقي الرباط 1958،

- مجلة أما العدد 68. ط2 للطبعة الرابعة سنة 2000 .

- مرتاض عبد الحكيم : الطرق الصوفية في الجزائر أصولها وتطورها سنة 1939 اشرف شايف عكاشة، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان 1998/1999.

- مياسي إبراهيم : دور القادرية في نهضة سوف ، مقال في مجلة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين ، أسبوعية يوم 29 محرم 1422 هـ 06 صفر 1423 23 أفريل 2001 ، السلسلة الرابعة ، العدد 47 .

- عفيفي محمد الصادق: الإتجاهات الدينية في الشعر الليبي الحديث دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، بغداد 1969م.

- التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983.

- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين ، صحح بإشراف الشيخ عبد العزيز السيروان دار القلم ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة، الجزء الخامس .